صحبة الدنيا*

الحسن البصري

حدثنا عبد الله بن محمد، قال: حدثنا أبو طالب بن سوادة، قال: حدثنا يوسف بن بحر المروزي، قال: حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، قال: حدثنا عبيدة بن سعيد بن رزين، قال: سمعت الحسن يعظ أصحابه يقول: إن الدنيا دار عمل من صحبها بالنقص لها والزهادة فيها سعد بها ونفعته صحبتها، ومن صحبها على الرغبة فيها والمحبة لها شقي بها وأجحف بحظه من الله عز وجل ثم أسلمته إلى ما لا صبر له عليه ولا طاقة له به من عذاب الله، فأمرها صغير، ومتاعها قليل، والفناء عليها مكتوب، والله تعالى وارث ميراثها، وأهلها محولون عنها إلى منازل لا تبلى، ولا يغيرها طول الزمن، لا العمر فيها يفنى فيموتون، ولا إن طال الثواء منها يخرجون، فاحذروا -ولا قوة إلا بالله- ذلك الموطن، وأكثروا ذكر ذلك المنقلب، واقطع -يا ابن آدم- من الدنيا أكثر همك، أو لتقطعن حبالها بك فينقطع ذكر ما خلفت له من نفسك، ويزيغ عن الحق قلبك، وتميل إلى الدنيا فتردبك، وتلك منازل سوء بيّن ضررها، منقطع نفعها، مفضية -والله- بأهلها إلى ندامة طويلة، وعذاب شديد، فلا تكونن -يا ابن آدم- مغترا، ولا تأمن ما لم يأتك الأمان منه، فإن الهول الأعظم ومفظعات الأمور أمامك لم تخلص منها حتى الآن، ولا بد من ذلك المسلك، وحضور تلك الأمور، إما يعافيك من شرها وينجيك من أهوالها، وإما الهلكة، وهي منازل شديدة، مخوفة محذورة، مفزعة للقلوب، فلذلك فاعدد، ومن شرها فاهرب، ولا يلهينك المتاع القليل الفاني، ولا تربص بنفسك فهي سريعة الانتقاص من عمرك، فبادر أجلك، ولا تقل: غدا؛ فإنك لا تدري متى إلى الله تصير!

واعلموا أن الناس أصبحوا جادين في زينة الدنيا، يضربون في كل غمرة، وكل معجب بما هو فيه، راض به، حريص على أن يزداد منه، فما لم يكن من ذلك لله عز وجل، وفي طاعة الله فقد خسر أهله وضاع سعيه، وما كان من ذلك في الله وفي طاعة الله فقد أصاب أهله به وجه أمرهم، ووفقوا فيه بحظهم، عندهم كتاب الله وعهده، وذكر ما مضى وذكر ما بقي، والخبر عمن وراءهم.

كذلك أمر الله اليوم، وقبل ذلك أمره فيمن مضى، لأن حجة الله بالغة، والعذر بارز، وكل موافٍ الله وما عمل، ثم يكون القضاء من الله وعباده على أحد أمرين: فمقضي له رحمته وثوابه، فيالها نعمة وكرامة! ومقضي له سخطه وعقوبته، فيالها حسرة وندامة! ولكن حق على من جاءه البيان من الله بأن هذا أمره -وهو واقع- أن يصغر في عينه ما هو عند الله صغير، وأن يعظم في نفسه ما هو عند الله عظيم، أو ليس ما ذكر الله من الكراهة لأهلها فيما بعد الموت والهوان ما يطيب نفس امرئ عن عيشة دنياه، فإنها قد آذنت بزوال، لا يدوم نعيمها، ولا يؤمن فجائعها، يبلى جديدها، ويسقم صحيحها، ويفتقر غنيها، مبالة بأهلها، لعابة بهم على كل حال، ففيها عبرة لمن اعتبر، وبيان فعلي لمن انتظر■

* كتاب الزهد للحسن البصري، تحقيق د. محمد عبدالرحيم، دار الحديث، القاهرة.